

مسار الرحلة الجزائرية خلال العهد العثماني

"الرحلات الحجازية أنموذجا"

ط.د/ بلحاج ربيحة

المركز الجامعي "بلحاج بوشعيب" عين تموشنت

إشراف: د. كبير الشّيخ

يعدّ التراث الجزائري زخما معرفيًا، وإنتاجا فكريًا يشهد له الإرث الفكريّ الإنسانيّ بجودة صنعة الكتابة، وما تأتي ذلك لأدبائها إلا لخوضهم في نظم القصائد وتدييح التصوص النثرية العربية، وما تجاوزوا في ذلك المتعارف عليه لدى المشاركة والمغاربة في مجال فنون الأدب الشائعة في ما يناسب كلّ عصر من العصور.

وإنصافا للأدب الجزائريّ، وجب الحديث عنه منذ عصوره الغابرة، قبل أن ينطلق من أقرب فترة، أي من فترة النهضة العربية الحديثة، أو من فترة الحركة الاستعمارية بشكل عام، وإلّا يكون، أن نُؤرّخ له، شأنه شأن التأريخ للأدب في المشرق العربيّ. ولا شك أن الباحث في جذور هذا الأدب سيقف على إنتاج متنوّع، ويجمع بين التركة الأدبية والتركة اللغوية، في مسيرة متأنية، حسب البيئة التي احتضنت هذا الأدب وحسب الذهنية المنتجة.

وليس الأدب المغاربي أقل شأنًا من مثيله المشارقي في فضاء الأدب، وبخاصّة الأدب الجزائريّ، فقد عانى موروثنا الأدبيّ الجزائريّ ومازال يعاني من الحيف، ومن صعوبة البحث فيه لقلّة احتفاء الساحة الأكاديمية والنقدية به، ورفض الغبار عنه، والعلّة في ذلك تكمن في التهميش من جهة، وفي قلة المصادر، إن لم نقل غيابها في بعض الأحيان، من جهة أخرى.

الحسين الورثيانيّ ورحلته:

الرحالة هو الحسين بن محمد بن السعيد المعروف بالورثياني، نسبة إلى قرية ورثان ولد عام 1125هـ/1713م، من عائلة ذات أصول عربيّة شريفة، مشهورة بالعلم والإصلاح والتصوّف والتدريس، نشأ نشأة دينية في زوايا بلده، شدّ الرحال للحجّ فمر بتونس، ليبيا، مصر، مكة، المدينة، فكانت له العلاقات الجيدة، بعلمائها ومشايخها الذين عاصروهم، ونال الحظّ الوافر من العلم لكثرة رحلاته، حتّى غدا شعلة ومانار علم يشار إليه بالبنان.

في القرن الثامن عشر ميلادي، تشعب في طلب العلوم المختلفة والفنون المتنوعة، فاجتمع له الفقه والتصوّف والتوحيد والأدب والبلاغة والتحوّ حتّى التاريخ، أمّا من حيث طريقة التصوّف فقد كان الورثياني شاذليًا إلى جانب تأثره بالخلوتية (الرحمانية عندنا)، عاش حياة زاخرة بالعلم والتأليف والتدوين والنظم، طلب العلم ونشره، وحاض غمار الرحلات الحجازية والعلمية حتّى وافاه أجله سنة (1194هـ-1780م).

يقعد الحسين الورثياني سيّد الرحالين الجزائريين بلا منازع وذاع صيته في الجزائر وتونس، ليبيا، مصر، الحجاز، وداخل الوطن في مدن كثيرة كبلدته بني ورثان، بسكرة، سيدي خالد، قسنطينة، عنابة، تلمسان.... وغيرها، وقد كان يتردّد عليها لزيارة الصالحين

أحياء وأمواتا (أضرحتهم)، أو لطلب العلم، أو للوقوف على شؤون الناس العالقة، كفك الخصومات والإصلاح بين الأطراف المتنازعة، أو تقديم المساعدة لمن يحتاجها من ذوي الحاجات، وقد مدحه أبو القاسم محمد الحفناوي بقوله: "الإمام العالم، العامل العلامة، الكامل الأستاذ الهمام، شيخ المشايخ الأعلام"¹.

كما سبق الذكر أنه اغترف من مختلف العلوم، وفي ذلك اقتداء بسلفه، فقد اشتهر والده محمد السعيد الوثلاي وجدّه الحسين بن محمد الشريف الوثلاي بالتبحر في علوم الشريعة والفقه، والحديث ... وغيرها من علوم الدين²، وتلك المزايا قلما اجتمعت لشخص واحد إلا لمن اختصهم الله بعنايته.

تفرد رحلة الوثلاي بخصوصية لم تتأتى لرحلات مغربية أخرى، ويعزى ذلك لكونها جمعت بين علوم مختلفة من أدب وفقه، وتصوّف، وتاريخ وجغرافيا، وعنوانها ذاته يوحي بذلك فقد سماها صاحبها "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، فبكونها رحلة حجازية فهي علمية في الوقت ذاته، ومخطو الرحلة متوقّرة كاملا، غير محقق ومحقق.

وقد تفنّن الوثلاي في وصف رحلته قائلا: "أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشّادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبيّنا فيها بعض الأحكام الغريبة، والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية..."³.

تلك الأوصاف التي أوردتها الرحالة في شأن رحلته هاته، لا ريب في صحتها وذلك يتكشّف من خلال الإطلاع على متن الرحلة واستخراج درره وواقئته، إذ نجده "التزم بالصدق في كلّ ما أورده من أحداث ووقائع، فهو يدي برأيه بكل صراحة ويجاهر بالحق إن رأى في ذلك مصلحة"⁴.

بيّن الوثلاي في متن رحلته الأسباب العديدة التي دفعته لتدوينها، فسجل فيها كل شاردة وواردة صادفته، فقيّد الأحداث بتواريخها، وسمى الشخصيات التي التقاها بأسمائها الحقيقية، ووصف كل المناظر التي رآها، والدروب التي يسلكها الحجاج في سفرهم، والصعوبات التي تعترضهم، وبيّن ذلك كلّ بقوله: "فإنّي لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والزباج، والقفار والديار، والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كلّ مكان، من الفقهاء والمحدّثين والمفسّرين الأخيار، والأشياخ العارفين و... أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشّادي"⁵.

يبدو الرّحالة الوثلاي في تسجيله للكّم الهائل من الأحداث والوقائع وكل ما يقع عليه ناظره، أو يلتقيه، كأنّه يعوّض ما لم يحرص على تدوينه في رحلاته السابقة، فجاد فيها بكل ما يثريها من آداب وثقافة وتصوّف، وفقه، وجغرافيا، وتاريخ ... وغير ذلك فأصدرها زخما هجينا، بل توليفة من العلوم المختلفة، استوعبت أحداث ثلاث حجّات قام بها الأولى كانت عام 1153 هـ، ثمّ تأنّها بأخرى عام 1168 هـ، وثالثة عام 1179 هـ، وعمد خلالها إلى تدوين كلّ ما أمكنه خلال فترات الاستراحة وحطّ الرّحال .

اعتمد الورثاني في تسجيل أحداث رحلته، على مصادر مختلفة، منه مؤلفات الرحّالين السابقين أمثال: أبي سالم العياشي في " ماء الموائد"، وأحمد بن ناصر الدرعي المغربي "الرحلة الناصرية"، التيجاني، العبدري، وقد نقل عنهم كثيرا من الأقوال والاعتقادات.

كما لا ننسى اعتماده على مصادر تاريخية لدى مؤرخين كثر أمثال البكري وابن حوقل والسيوطي وغيرهم، وهاجسه في ذلك إيعاز قيمة للتاريخ الذي لم يحظ بالمكانة اللائقة به لدى الجزائريين في ذلك العهد.

وهذا ما أورده الشيخ الحسين الورثاني في قوله: "لا سيّما أهل بلادنا، فإنّ علم التاريخ منعدم فيهم، وساقط عندهم فيحسبونهم كالاستهزاء، أو اشتغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها"⁶.

والذي ألبأ الرحّالة إلى المؤرخين هو " تحري الحقيقة فهو لا يكتفي بما شاهده أو روي له بل يلتجئ في بعض الأحيان تأكيدا لروايته أو استكمالا لوصفه إلى الاقتباس من كتب الرحّالين السابقين"⁷.

ولم يعتدّ بالمعارف المدوّنة فقط في تدوين رحلته بل زواج بينها وبين الرواية الشفوية، فأخذ كثيرا من الأقوال والأخبار عن علماء وشيوخ لقيف من الزوايا من داخل البلاد وسجّلها استشهادا بها.

كما سار على التّمط نفسه عند لقائه بعلماء البلاد التي دخلها أثناء رحلته، فنهل من علوم أهلها من فقهاء وعلماء و أصحاب أوراك كتونس، ليبيا، مصر، بلاد الحجاز.

انطلق الحسين الورثاني من بلدته بني ورتلان، مرورا ببسكرة وصولا إلى الجزائر العاصمة، ثمّ سار ميّما صوب بلاد الحجاز قاصدا الحجّ وطلب العلم، فعبر بلدانا كثيرة كتونس (قابس بلاد الجري)، ثمّ ليبيا (طرابلس)، وصولا إلى مصر (البواقي)، منها إلى مكّة ثم المدينة، وأثناء تلك الرحلة واجه الرحّالة والرّكب المرافق له صعوبات كثيرة، منها قطاع الطّرق واللصوص الذين كانوا يعترضون سبيل قوافل الحج فيقتلون وينهبون، فكانوا يستعدّون للقائهم مع ماينتأجهم من خوف شديد.

وفي ذلك يقول الورثاني: "فلا ترى أحدا تأخر إلا أخذ وسلب، أو هلك، فالحمد لله علينا نتأخر نحن معشر الإخوان عن الرّكب كثيرا، واللصوص في آثارنا فلا نرى منهم... الأعراب اللين صدّوا الحجّاج في العام الذي قبلنا... لأنهم أخذوا ركب الحجّاج الجزائريّ والطرابلسي بل أخذوا منهم كيت من الدرّاهم وبذلك خلّوا سبيلهم"⁸.

كما تعرضّ الورثاني والرّكب المرافق له لمخاطر أخرى، تمثّلت في الظروف الطبيعيّة والمناخيّة من عطش شديد بسبب الحرارة العالية، أو الموت بسبب البرد القارس فقد "تضمنت الرحلة العديد من المخاطر منها الظروف الطبيعيّة مثل الحرّ والرّابع الرميّة..."

يضاف إلى ذلك بعض العصابات من قطاع الطّرق التي تعمل خارج ولاية الحاكم، فتترصد مواكب الحجّ وتأتي على أمتعتها عنوة وبقوة السّلاح، وكذلك أيضا بعض التّصابين الذين يستغلون حسن نوايا الحجّاج، فيسلبون ما لهم من مال بالغدور والخديعة

"9

وكان الأمر يصل إلى حدّ القول في كثير من الأحيان كما يروي الورثاني ذلك في قوله: " رأينا جموعا من العرب أصابنا منها خوف شديد لأنهم لا يغادرون أحدا إلا قتلوه وأخذوا ماله وذلك معلوم ضرورة فاستعدنا لهم مع الخوف الشّديد"¹⁰.

كان السفر للحجّ في ذلك العهد مزيجاً من المشقّة والعذاب، وكان الحجّ ضمن جماعات أو ما يسمى بالركب من باب الخذر والحيلة، لأنّ الظروف المعاديّة كانت كفيّلة بإهلاك الحاج لأوّل وهلة، رغم أنّهم كانوا يزوّدون بالأسلحة كالبندقيات للدفاع عن أنفسهم.

أمّ الشيخ الورثلاني رحلته حتّى وصل البقاع المقدّسة فاعتمر وحجّ، وقصد مصر أثناء رحلة الذهاب وجالس علماءها وشيوخها أمثال أحمد الجوهري، محمّد الحفناوي، الشيخ البلدي، علي الصّعيدي، علي الفيومي، وعبد الوهاب العيفي¹¹، وأعجب أشدّ الإعجاب بمصر لما وجد فيها من علم وعلماء ومشايخ وأصحاب حرف، ومهن... وغيرها.

حتّى قال عنها: " مهما رأيت جنسا فيها إلا قلت إنّ هذا الجنس هو الذي في مصر، فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر، وإذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير وإذا رأيت الأشياخ وأصحاب الأوراد قلت هم أهلها، وكذا أهل الصنائع والحرف، فما وردت قوما أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه"¹².

كان الورثلاني ينوي إطالة المكوث في مصر، ولكنّ الركب المرافق له استعجله لمواصلة الرّحلة معه إلى بلاد الحرمين الشّريفيين، وبعد عودته إلى الجزائر لقي احتفاء كبيراً في طريقه سواء في المدن أم البلدات التي مرّ بها، أم في قرية بني ورثلان، حيث ظلت مواكب المباركة تغد عليه لمدة أشهر، ثمّ جلس للدّعوة و تعليم النّاس أمور دينهم، بالافتاء وإلقاء الدّروس والنّصح والوعظ، وتوفاه الله سنة'1193-1779)، ودفن بالقرب من زاوية بني ورثلان .

على سبيل الخاتمة :

تعتبر الرّحلات الحجازيّة شاهد عيان على زخم وإرث علميّ وأدبيّ خلّفه الرّحالة المغاربة عامّة والجزائريّون خاصّة، ولهم قصب السبق في تخليد ثقافة تلك البلدان التي ارتحلوا إليها، وأزّحوا لأحداث هامّة جرت فيها، فحفظوا لها تاريخها ومن أولئك الرّحالة من سبق ذكرهم .

- اتّصف الشيخ أحمد المقرّي بأسمى الخصال والفضائل، ممّا جعله يتبوأ المكانة الرفيعة ويرتقي في المناصب المختلفة سواء في الجزائر (تلمسان) أم في المغرب (فاس)، أم حتّى غرناطة، وأمّا رحلته "رحلة في المشرق والمغرب" فكانت لها الريادة في القرن الحادي عشر هجري، حيث اشتغل أحمد المقرّي على تدوين أحداثها، حين عرف الكثيرون عن الكتابة، وتكمن أهمّيّتها في اشتغالها على جوانب كثيرة من حياة العلامة المقرّي، وثقافة وآداب وتاريخ البلدان التي زارها، زيادة على أمور دينيّة مختلفة .

- أمّا الشيخ أحمد بن عمّار الجزائري، فما قيل فيه لا يوفيه حقّه، وهو العلامة القّد، والشّاعر المفوّذ، والبلغ المحنّك، وذلك من خلال الشهادات السابقة المركزيّة لشخصه، وهو الموصوف بالدرة التي تفرّدت في عصرها، رغم ضياع معظم آثاره، وتفرّقها بين مكنتات الجزائر، تونس، القاهرة، والحرمين الشريفيين، وتبقى رحلته الشّهيرة " نحلة اللّيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب " شاهدا على عبقريته رغم ضياع جزءيها الثاني والثالث، والتي احتفى في جزئها الأوّل بشعر المولديات في الجزائر والأندلس، ومكانته لدى شعراء تلك العصور .

- وأما الشيخ الحسين الورثياني، فهو العلامة المحدث والفقير، والمتصوف، والمصلح الديني والاجتماعي، إلا أنه اشتهر بالرحلة أكثر فهو سيد الرحالين الجزائريين وأميرهم، ورحلته "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" توليفة من الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية.

الهوامش:

- 1- أبو القاسم محمد الحناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق: محمّد أبو الأحفان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، ج2، ص139.
- 2- مختار بن طاهر فيلاي، رحلة الورثياني، عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د.ت، ص 11.
- 3- الحسين بن محمد الورثياني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقدم محمد بن أبي شنب، مطبعة بيروفونتانة الشرقية، الجزائر، 1908م، ص 713.
- 4- ناصر الدين سعيدون، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط14، 1999 م، ص 420.
- 5- الحسين الورثياني، نزهة الانظار في فضل علم التاريخ و الأخبار، مصدر سابق، ص 13.
- 6- الحسين الورثياني، نزهة الانظار، مصدر سابق، ص 597.
- 7- ينظر: مختار بن الطاهر فيلاي، رحلة الورثيانيه - عرض ودراسة - دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1998، ص ص 62-63.
- 8- الحسين بن محمد الورثياني، نزهة الأنظار، مصدر سابق، ص 332.
- 9- عبد الرحمن عزري، التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، د.ط، 2011، ص 55.
- 10- الحسين الورثياني، نزهة الأنظار، مصدر سابق، ص 449.
- 11- الحسين الورثياني، نزهة الأنظار، ص ص 285-303.
- 12- المصدر نفسه، ص ص 560-561.